أنماط السيرة في واقعة الطف

ابتهال حسن كاظم
أ.د عامر صلال الحسناوي
جامعة: المثنى/ كلية: التربية للعلوم الانسانية

ملخص البحث

تنوعت الطرق التي يعبّر فيها الكاتب عن نفسه أو عن غيره، وكان منها السيرة الذاتية، وهي أصدق الطرق في التعبير وأقلها خيالًا واختلاقًا للتفاصيل والأحداث؛ لأنها تقوم على التوثيق في نقل الأحداث والأخبار؛ إذ يتحدّث فيها الكاتب عن حياته، وظروفه المختلفة، ويرّكز فيها على الحقيقة والصدق وعدم التزيّيف ونقل الأحداث كماهي، أمّا السيرة الغيرية فهي تلك التي يتناول فيها الكاتب شخصية معروفة، فيتحدث عن مراحل حياتها، وإنجازاتها، وطريقة عيشها، بشكل واقعي وبطريقة حيادية، كما إنّنا نجد نوعًا آخر للسيرة يستشرف المستقبل وما سيحصل للشخصيات من أحداث وظروف وتقلبات لتعّد بذلك قسيمًا ثالثًا للغيرية والذاتية، وهو مايسمى بالسيرة الاستشرافية، وسنجد مصاديقًا لهذه الأنواع في السيرة الطفّية .

الكلمات المفتاحية: السيرة، الغيرية، الذاتية، الاستشرافية، واقعة الطف.

مقدمة

استعمل العرب كلمة مفردتي "سيرة" و "ترجمة" بمعنى واحد فليس هناك من فروق لغوية بين اللفظتين، والمعاجم المعاصرة تستعملها بمعنى واحد أيضًا، وهو دلالتها على تتبع حياة شخص من الأشخاص؛ لكن في الاصطلاح جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتب فيها، فإذا ما طال النفس واتسعت الترجمة سميت سيرة[1]

والترجمة للأشخاص قديمة قدم الانسان وجدت مع وجوده، وظهرت مع ظهور الكتابة في الأمم التي عرفت الكتابة، فكان في الآداب الإغريقية مؤرخون يذكرهم التاريخ بفخر، وكان عندهم كُتّاب تراجم يسجّلون حياة العظماء منهم، ويصوّرونها لأغراض سياسية، أو شخصية، أو بدافع الاقتداء بهم أو للسير على هديهم والتخليد لسيرهم، لكن التراجم التي كانت سائدة في الآداب الغربية كانت ذات شكل ساذج بسيط مقارنة بالتراجم العربية الإسلامية السائدة آنذاك التي فاقتها في الكثرة، والتنوع، والافتنان، في ترتيب الاعلام واستمرت حتى العصر الحديث[2]

تعّد كتب السيرة من أكثر الكتب امتاعاً للمتلّقي فهي تسلط الأضواء على شخصيات مشهورة وتكشف الجوانب الخفية، والأبعاد المؤثرة في شخصياتهم، وكثيرًا ما تكون الدافع لاستثارة اهتمام القارئ بكاتبٍ معين، فيحاول التعّرف عليه وقرآءة أعماله لأول مرة، أو مرة ثانية من خلال منظور جديد[3] والتراجم والسير بأنواعها المعروفة من أدبية، وفنية، وتاريخية، تحتل مكانة مرموقة بين الآداب العالمية فهي تتناول دراسة النواحي العامرة بالحياة، والنابضة بالتجارب الصادقة، التي تحفل بها، تشمل مظاهر النمو الإنساني من عهد الطفولة الى مراتب النضوج الذهني والفني [4] ولعلّ أشهر تلك الأنواع وأهمها تلك التي كان لها حضور فاعل في النثر السيري الطّفّيّ ويتمثل بالسيرة الغيرية، والسيرة الذاتية، والسيرة الاستشرافية، والتي سنقوم بدراستها مع تطبيقات من السيرة الطفيّة.

المبحث الأول

السيرة الغَيّريّة

لقد عرف الأدب السيرة الغيرية باكرًا مقارنة ببقية الأجناس السيرية الأخرى، على الرغم من حداثته وجدّته، الذي كان للعرب قصب السبق في ما أوردوه في كتب التراجم التي صنفوها، فكانوا يترجمون للشعراء، والأدباء، والرواة، بل حتّى للنساء، فالسيرة حديث الكاتب عن غيره من الأشخاص وهو الغالب في تراثنا)[5] ربّما يعود السبب إلى تحرج الكاتب في الكتابة عن نفسه، فيتخذ من غيره وسيلة للبوح عمّا يلجُ في نفسه، فيندفع اندفاعاً في الكلام عن الآخرين، ولا يرى بأساً، ولا حرجاً، ولا خجلاً فيه.

وتختلف الغيرية عن الذاتية في أمور أخرى منها، أن كاتبها يعتمد على المذكرات والوثائق واليوميات والقرآءآت الأخرى عن الشخصية التي يترجم لها، أمّا كاتب السيرة الذاتية فإنه يعتمد على ذاكرته ويصّور مادة منّوعة من ذاته، وهو صاحب الكلمة الأخيرة في موضوعه لا يستطيع أحد أن يضيف لمادته شيئاً جديداً، أما الكاتب الغيري فمن الممكن أن يضيف إلى موضوعاته دائماً شيئا جديداً، ويمكن أن يتناول موضوعه كتّاب آخرون ربما يملك بعضهم أكثر مما يملكه من وثائق ومعلومات عن الشخصية ذاتها التي يترجم لها[6]،

ومن أهم الفروق التي أجمع عليها الباحثون بين السيرة الغيرية والذاتية هو ((أن السيرة الذاتية يتم فيها التطابق بين السارد والشخصية الرئيسة والمبدع، أمّا السيرة الغيرية فلا يمكن أن يتطابق فيها المبدع مع الشخصية الرئيسة))[7] .

كما أن السيرة الغيرية تكون مقيدة بالوثائق والحقائق التاريخية أكثر من السيرة الذاتية التي تتجاوز التاريخ عندما تسبر أغوار الذات إذ ((أنها لا تكتسب صفة السيرة بمعناها الحقيقي الا اذا كانت تفسيرًا للحياة الشخصية في جوها التاريخي، وهي ليست مجرد أخبار تأريخيه ولاهي مجرد تحليلات نفسية اجتماعية، بل هي كل ذلك مسبوكاً في قالب فني ذي طلاوة ورواء))[8].

ونلحظ أنّ السِيَّر الغيرية كثيرة في التراث العربي، ومنها ما نجده في قصيدة الفرزدق الميمية التي يُعرِّف فيها بالإمام زين العابدين عليه السلام ويذكر شيئا من سيرته الطاهرة، رداً على هشام بن عبد الملك الذي حاول تجاهل معرفته في حادثة مشهورة يرويها لنا التاريخ، في أنّ هشام بن عبد الملك لّما حجَّ في أيام أبيه طاف بالبيت، وجهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليتلّمسه، فلم يقدر على ذلك لكثرة الازدحام، فنصب له كرسي وجلس عليه ينظر إلى الناس، ومعه جماعة من أعيان الشام، فبينما هو كذلك إذ أقبل الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام بن علي بن ابي طالب عليه السلام، فطاف بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتى استلم الحجر، فقال رجل من أهل الشام لهشام: من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام: لا أعرفه؛ مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، وكان الفرزدق حاضراً، فقال: أنا أعرفه، ثم اندفع فأنشد هذه القصيدة التي أغضبت هشامًا، فأمر بحبسه بين مكة والمدينة[9]

هَـــــذا الّذي تَعرِفُ البَطْحاءُ وَطْأتَهُ *** وَالبَيـْتُ يعْرِفُهُ وَالحِلُّ وَالحَـــــــــــرَمُ
هـــــذا ابنُ خَيرِ عِبـــــادِ الله كُلـّـهِمُ *** هذا التّقيّ النّقيّ الطّاهِرُ العَلَمُ
هـــــذا ابنُ فاطمَةٍ إنْ كُنْتَ جاهِلَهُ *** بِجَـدّهِ أنْبِيَـــــاءُ الله قَدْ خُتِمُـــــــوا

لقد عُدّت قصيدة الفرزدق هذه من روائع شعره بالنظر لما حفلت به من معانٍ جميلة وصور فنية رئعة، فقد أراد الفرزدق أن يعّرف بشخصية الإمام علي بن الحسين عليه السلام وهو المعروف لدى مكة الكرمة كّلها، وبيت الله الحرام و أماكن الحِل، وهو ابن خير العباد وخاتم الانبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم هذه الحقيقة الواضحة التي لا خلاف فيها، ولا فخر بعد هذا النسب الطاهر، فقدم تعريفا مناسبا للشخصية التي أراد سرد سيرتها، فكّررَّ اسم الإشارة هذا، وهذا التكرار لتثبيت المعنى المقصود إظهاره؛ لإزالة اللبس عن شخصية الإمام زين العابدين عليه السلام[10] فضلاً عن استعماله لأسلوب الحجاج الذي أثبت فيه هوية الإمام عبر التكثيف بالأدلة الحجاجية التي تثبت هويته، وإخراجه من دائرة التنكير التي حاول إضفائها هشام بن عبدالملك على الإمام زين العابدين عليه السلام، فاستعمل أسلوب التدرج في التعريف بالإمام بدءً من المكان الذي وقف فيه بقوله" هذا الذي تعرف البطحاء..."، وصولاً إلى النسب الطاهر في قوله: [هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله....] فكأنه أراد استعمال عبارة :المعّرف لا يُعّرف، ثم بدأ بالتصريح بنسبه الطاهر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل التعريف بالإمام من المكان أي بمعرفة مكة وأهلها له،

ونجد مثل هذه السيرة الغيرية في جواب الإمام الحسين عليه السلام للوليد بن عتبة والي المدينة عندما عرض عليه البيعة ليزيد بن معاوية فأجاب عليه السلام قائلًا: ((**ويزيد رجلٌ فاسق، شاربُ الخمر، قاتلُ النفس المحترمة، معلنٌ بالفسق ليس له هذه المنزلة، ومثلي لا يبايعُ مثله**))

[11] فأشار الامام الحسين عليه السلام بمقالته هذه إلى سيرة يزيد عبر تكثيف الدلالات الدالة على شخصيته متمثلةً بالفسق والفجور، وشرب الخمرة، وهذه الصفات لا يمكن أن تجمع في من يتولى خلافة المسلمين مما يؤكد حرمة توليه الخلافة وعدم جواز طلب البيعة له، لاسيما وأن الإمام الحسين عليه السلام قد أشار في مكان آخر إلى سيرة يزيد وعدم جواز توليه الخلافة فهي محرمة عليه وعلى آبائه على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك عندما التقى به مروان بن الحكم فقال له: ((**أبا عبد الله إني لك ناصح فأطعني تُرشد وتُسدد!!، فقال له الإمام الحسين عليه السلام: وما ذاك؟ قل فاسمع، قال مروان: إني أُرشدك لبيعة يزيد، فقال الامام عليه السلام: انا لله وانا اليه راجعون، وعلى الإسلام السلام إذا بليت الامة براعٍ مثل يزيد، ثم قال عليه السلام : يا مروان: أترشدني لبيعة يزيد وهو رجل فاسق، لقد قلت شططًا من القول.... لقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: الخلافة محرّمةٌ على آل أبي سفيان الطلقاء وأبناء الطلقاء، فإذا رأيتم معاوية على منبري فأبقروا بطنه، ولقد رآه أهل المدينة على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يفعلوا به ما أمروا فابتلاهم بابنه يزيد**))[12].

فالإمام كثف من دلالات السيرة الغيرية عبر الاستشهاد بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ ليقدم تعريفاً واضحاً لشخصية يزيد بن معاوية، فضلاً عن بيان حالة الكفر والإلحاد التي كان عليها آباؤه آل أبي سفيان، فلم يدخلوا الإسلام مطلقًا، ولم يسلموا، وعند فتح مكة عفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأطلق سراحهم وقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وقد حرّم الرسول صلى الله عليه وآله الخلافة عليهم بقوله: [الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان]، فتدرّج بالحجج المنطقية التي تثبت سيرة يزيد بن معاوية، فلم يقل منذ البداية أنه فاسق، وإنما جعل ممهدات إقناعية لذلك فردّد: إنّا لله وانّا إليه راجعون، متخذاً من قوله تعالى: **{ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ }** [سورة البقرة:155- 157].

كالدلالة أولى في بيان سيرة يزيد، ثم وضح سبب الإستشهاد بالآية الكريمة بقوله: و[على الإسلام السلام...] فهو يلمّح إلى عظم الحادثة في تولي يزيد بن معاوية الخلافة فعضد ذلك بالإستفهام بقوله:[أترشدني لبيعة يزيد؟]، فالإمام يجبر المخاطب على تذكّر سيرة يزيد قبل إثبات صورته في ذهن المتلقي من قبل الإمام عليه السلام ، في قوله أنه رجل فاسق، ثم أوجز هذه السيرة بلفظتين [ابن الطلقاء]، وهي سيرة غيرية موجزة ومكثفة، وفيها تحوّل وتغّير في سرد سيرة يزيد، من حيث الطول، والقصر، فسيرة الأشخاص عادةً تتسم بالإسهاب، لكن الامام الحسين عليه السلام سرد سيرة يزيد وعّرف بشخصه بكلمتين هما: "ابن الطلقاء" التي أغنته عن التعريف بصفحات طويلة ربما لأنه ابتغى خلق رؤية واضحة لدى المتلقي، عِبر الاستشهاد بحديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الذي عبّر عنه بكلمة "جدي" لتعضيد الدلالة، أو الحجة التي ابتغاها الإمام عليه السلام وهو ابن خير البرية، ويزيد ابن الطلقاء، فاستعان بإمكاناته اللغوية التي ساعدت في إقامة تفاعل بينه وبين المتلقي؛ لإيضاح السلطة أي سلطة جده رسول الله صلى الله عليه وآله، فهي أساس استند عليه الإمام في تقديم الدلالة على سيرة يزيد فضلاً عن تهيئة المتلقي لاستقبال كلام الإمام عليه السلام [13].

ومن السيرة الغيرية في وصف السيرة الغيرية للحر عليه السلام جاءت على لسان أحد أصحاب الحسين عليه السلام ، وقيل علي بن الحسن عليه السلام، أو الإمام الحسين عليه السلام والتي قال فيها:

لَنِعْمَ الحُرُّ حُرُّ بَني رِياحٍ ** صَبورٌ عِنْدَ مُشْتَبَكِ الرِّماحِ**

وَنِعْمَ الحُرُّ إذْ وَاسَى حُسَيْناً ** وَجَادَ بِنَفْسِهِ عِنْدَ الصَّبَاحِ[14]**

ومثل هذه الأبيات ما أنشأه ابراهيم بن الحسين، عندما برز للقتال[15] ، فقد اشتملت أبياته على سيرة للإمام الحسين عليه السلام عبر الإشارة إلى نسبه الطاهر أيضًا، كما في أبيات زهير ابن القين السابقة، واتسمت بالسمات الأدبية للسيرة أيضًا وهكذا كان اكثر من برز للقتال من اصحاب الامام الحسين وأهل بيته بعرض سيرة الأمام الحسين)عليه السلام ،ويعرّف به لمن ظلم حقه، وجهل مقامه، وانتهك حرمته.

المبحث الثاني
السيرة الذاتية

يمكن القول إنّ الوصول إلى تعريف جامع مانع للسيرة الذاتية أمّر صعب المنال؛ وذلك يعود إلى طبيعة هذا النمط الأدبي، الذي يعرض فيه صاحب السيرة لحياته الواقعية بأسلوب أدبي وبصور وتشكّلات متعددة، فقد يتخذ الشكل الروائي، أو الخطابي، أو بصورة رسائل أو غيرها، كما ترجع صعوبة تحديد تعريف جامع للسيرة الذاتية إلى طبيعة الأدب نفسه؛ التي تنأى عن التحديد الصارم والقول الفاصل، لذا فلا غرابة أن تختلف التعريفات لدى الدارسين، وإن اتفقوا في إقرارهم للسمات والخصائص العامة لهذا الجنس الأدبي[16] .

فالسيرة الذاتية من حيث الاصطلاح وكما وردت في معجم مصطلحات النقد الأدبي المعاصر تعني: ((حياة يسردها صاحبها، ويستعمل المصطلح للدلالة على صنف ذاكرات تشتغل على حياة كتّابها أكثر من الأحداث التي شهدوها))[17] فلم يكن هناك اتفاق بين النقاد والمنظرين في تحديد تعريف خاص للسيرة الذاتية، بالرغم من غزارة الأبحاث الحديثة في هذا المجال، نذكر من هؤلاء النقاد جورج ماي(ت1٩٤9م) الذي رأى من الصعب الوصول إلى تعريف جامع للسيرة الذاتية؛ إذ قال: ((إنّ السبب الحقيقي في انشغال الدارسين بمسألة التعريف حين يتعلق الأمر بالسيرة الذاتية أكثر من انشغالهم بها في شأن السيرة مثلًا، يكمن في كون السيرة الذاتية مفهومًا له من حداثة العهد حظٌّ أوفر بكثير، ومن ثَمَّ فإنّه يشمل مجموعة من النصوص لم تتمكن بعد سُنَّة في القراءة والتفسير عريقة من توحيدها أو المجانسة بينها بشكل تام))[18]، فهو رأى بإنَّ سبب عدم تحديد التعريف أنَّ السيرة الذاتية جنس أدبي حديث نسبيًا، بل هو أحدث الأجناس الأدبية .

ومن الذين خاضوا غمار تجربة وضع تعريف جامع للسيرة الذاتية "فيليب لوجون" الذي حدَّ السيرة الذاتية بقوله: **((حكيٌ استعاديٌ نثريٌ يقوم به شخص واقعي، عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته))**[19] ومن الباحثين العرب الذين عرفوا السيرة الذاتية تعريفًا قريبًا من تعريف فليب لوجون، الدكتور محمد عبد الغني حسن إذ يقول: ((الترجمة الذاتية هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته، وشبابه، وكهولته، وما جرى له من أحداث تعظُم وتضؤل تبعاً لأهميته))[20] نفهم من هذه التعريفات إنّ السيرة الذاتية هي قصة حياة إنسان يرويها بنفسه، ولكّن لا يعني ذلك إنّ كل حديث يسرده الأنسان عن نفسه هو سيرة ذاتية فهي كما قال الدكتور احسان عباس ((ليست حديثًا ساذجًا عن النفس، ولا هي تدوين للمفاخر والمآثر))[21] .

وإذا ما تتبعنا صور وتمثلات السيرة الذاتية في واقعة الطّف، نجدها كثيرة في الخطب والرسائل والأراجيز الشعرية على لسان الإمام الحسين عليه السلام أو على لسان أصحابه وأهل بيته عليهم السلام، فالإمام الحسين عليه السلام منذ خروجه إلى العراق ومغادرته ديار جده رسول الله ﷺ كان يعّرف بنفسه، ويذكّر بنسبه الطاهر وقرابته من رسول الله ﷺ فهو سبط النبي المصطفى ﷺ الذي ليس على وجه الارض ابن بنت نبي غيره، وكان عليه السلام يصوغ سيرته ونسبه الطاهر صياغةً فنيةً تعتمد على سرد الحقائق، بإسلوب أدبي رائع، ومثل ذلك ما نجده في جوابه للوليد بن عتبة والي المدينة عندما عرض عليه البيعة ليزيد، اذ **((أقبل الحسين عليه السلام على الوليد فقال: يا أيُّها الأمير إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملآئكة، وبنا فتح الله، وبنا ختم الله، ويزيد رجلٌ فاسق، شاربُ الخمر، قاتلُ النفس المحترمة، معلنًا بالفسق ليس له هذه المنزلة، ومثلي لا يبايعُ مثله..))**[22] نلحظ أن الإمام الحسين عليه السلام قد افتتح سيرته بقوله أيها الأمير؛ للتعريف بمن يخاطبه، ولم يقل يا أمير المؤمنين لأن الإمام عليه السلام أحّق بإمارة المؤمنين منه؛ فإن قالها وجبت الطاعة لهم، فضلاً عن "إن وحدات البداية هي أهم ما يقرع الأذهان المتلقية ويحدد درجة القبول أو الرفض للتصور المتقدم"))[23]، لذلك قال: أنّا أهل النبوة ومعدن الرسالة، وهي عبارة موجزة تستمد قوتها من ذاتها لسرد سيرة الإمام الحسين عليه السلام، فقوله هذا حجة على كلِّ من حضر وسمع كلامه من المسلمين؛ إذ لا خلاف بين أحدٍ منهم على أن الإمام عليه السلام هو سبط النبي الأكرم ﷺ وفيهم نزل قوله تعالى**{ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}** الأحزاب :33، ثم قال [معدِن الرسالة] ليكمل سرد سيرته أنّه من بيت استقرت وختمت فيه النبوة، والرسالة الإسلامية، فعزّز هذا المفهوم بمصافحة الملائكة

له، وهذا ما لم يحظَ به معظم أنبياء الله تعالى، وهو دليل على علوّ شأنهم، فهم قطب الرحى لهذه الرسالة السماوية، بمعنى أنّهم أحقّ بخلافة المسلمين بعد رسول الله ﷺ فلا تجوز الطاعة إلّ لهم، فالإمام قدّم سرد سيرته عبر الاستعارة في قوله "أهل النبوة، ومعدن الرسالة" وهو أسلوب أدبي مائز للتعريف بسيرته الطاهرة.

كما إنَّ الإمام الحسين عليه السلام خرج مرات عديدة لجيش ابن سعد، يعظهم، ويرشدهم لعلّهم يرجعون عما أقدموا عليه، فكان يذكرهم دائمًا بمكانته وقرابته من رسول الله ﷺ ويعرّفهم نفسه إن كانوا يجهلون، من ذلك قوله: ((**أيُّها الناس انسبوني من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟!!، الست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه، واولُ المؤمنين بالله، والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربه؟ أوليس حمزة سيد الشهدآء عم أبي؟ أوليس جعفر الطيار عمي؟ اولم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟....**))[24]، فتقدم اليه شمر بن ذي الجوشن، فقال: ما هذا الذي تقول؟ أفهمنا حتى نفهم، فقال الإمام عليه السلام أقول لكم: اتقوا الله ربكم ولا تقتلون، فإنّه لا يحل لكم قتلي، ولا انتهاك حرمتي فإنّي ابن بنت نبيكم، وجدتي "خديجة" زوجة نبيكم، ولعلّه قد بلغَكم، قول نبيكم محمد ﷺ الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، ما خلا النبين والمرسلين، فان صدقتموني بما أقول وهو الحق، فو الله، ما تعمدت كذبًا منذ علمت أنّ الله يمقتُ عليه أهله، وإنّ كذبتموني فإن فيكم من الصحابة مثل: جابر بن عبدالله، وسهل بن سعد، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك....أفتشكون أني ابن بنت نبيكم؟ فوالله، ما بين المشرقين والمغربين ابن بنت نبي غيري....))[25]

فالإمام بدأ بسرد سيرته بعد النداء بفعل الأمر، فأشار إلى شيء قارّ في ذهن المتلقي في قوله [انسبوني من أنا ..] فحاول تذكير القوم بما أغفلوه عن نسبه الطاهر، وامتداده إلى رسول الله ﷺ فكرر عليهم استعمال فعل الأمر لأربع مرات متتالية في قوله [انسبوني، وارجعوا ، عاتبوها ، وانظروا]، وهذا التكرار من أجل إلزام المتلقي بمعرفته، لا سيما وأنّه قدّم دليلاً واضحاً للناس على سيرته، والتعريف بشخصه، فليس على وجه الارض ابن بنت نبّي غيره وابن وصيّ غيره، وسيد الشهداء حمزة عم أبّيه، وجعفر الطيار عمّه، وهو وأخيه الحسن سيدا شباب أهل الجنة على لسان رسول الله ﷺ، وذلك عهده إلى أمته، وقد أشهد على هذه الحقيقة خيار صحابة رسول الله ﷺ وثقاتهم الذين شهدوا مقالة رسول الله ﷺ تلك وعهده إلى أمته بحفظ عترته وأهل بيته، ورعاية حرمته وحقه فيهم، فذكره لنسبه بصيغة الاستفهام الإنكاري من أجل التوبيخ، والإرشاد، فأعداء الإمام أنعم الله عليهم بالإسلام فكيف يحلّ لهم قتله؟ فالاستفهام يؤدي دوراً كبيراً في الإقناع وخاصة في العملية الحِجاجية؛ نظراً لما يعمله من جلب المتلقي إلى فعل الاستدلال))[26]، وبعد ذكر كل هذه الصفات والحقائق بإسلوب أدبي رائع، وفي حوار مباشر يختمه بسؤالهم.. "أما في هذا حاجز عن سفك دمي؟؟؟!"، فهو لا يريد الإخبار بقدر ما يريد التأثير في نفوس المتلقين؛ لذلك لجأ إلى الاستعمالات اللغوية التي تستمد دلالتها من سياقها الذي تنضوي تحته، وقد قصد الإمام الحسين عليه السلام من سرد سيرته أن يقيم الحجة على الأعداء؛ إذ لم يحفظوا قرابته برسول الله ﷺ ولم يفوا بعهد رسول الله ﷺ؛ لمّا أوصى بعترته وأهل بيته، فانتهكوا حرمة نبيهم بانتهاكهم حرمة سبطه، وسيد شباب أهل الجنة.

كما اننا نجد سيرة ذاتية في خطبة الإمام السجاد في أهل الكوفة قبل سيرهم إلى الشام، إذ بدأ الخطبة بالتعريف بنفسه، ونسبه الطاهر، ثم عّرف بنفسه من خلال ذكر ما نزل بأبيه الشهيد المظلوم من ظلم وعدوان، فقد قال: ((**أيها الناس من عرفني فقد عرفني، من لم يعرفني فأنا أعّرفه بنفسي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن المذبوح بشط الفرات، من غير دحل ولا ترات، أنا ابن من انتهكت حريمه، وسُلب نعيمه، وانتهب ماله، وسُبي عياله، أنا ابن من قُتل صبرا وكفى بذلك فخرًا، فأنشدتكم الله هل تعلمون أنّكم كتبتم إلى أبّي وأعطيتموه العهد والميثاق فخذلتموه؟! فتباً لما قدمتم وسوأة لرأيكم بأية عينٍ تنظرون إلى رسول الله ﷺ إذ يقول: قتلتم عترتي، وانتهكتم حرمتي، فلستم من أمتي**))[27]. فهنا نلحظ بأن الإمام السجاد عليه السلام سرد سيرته وعرّف الناس بنفسه، بأسلوب أدبي مؤثر في النفس، انطوى على وصفٍ مسبوك، وحوار مباشر خارجي يتسم بالحرارة، التي تجذب المتلقي وتترك آثارها في نفسه، كما نجد الشخصية التي تدور حولها السيرة واضحة مع زمان ومكان محددين للسيرة، وهو في الكوفة في طريق السير إلى الشام.

ومما يجدر الإشارة اليه إنّ السيرة في واقعة الطف عمومًا تتسم بالتكثيف بالعبارة والدلالة على معانٍ كثيرة في كلمات موجزة، والمعروف إنّ السيرة تتسم بالإسهاب والإطالة في السرد، كذلك ما يجدر التنويه إليه في هذا المقام، التداخل بين السيرة الذاتية والغيرية، فكاتب السيرة سوآء كانت شعرًا، أم نثرًا، يبدأ بسيرة ذاتية ثم يتحول إلى سرد سيرة غيره من أبٍّ، أو جدٍّ يعود نسبه له، فتكون السيرة ذاتية وغيرية في آن واحد، ومن الأمثلة الشعرية في سرد السيرة الذاتية قول الإمام الحسين عليه السلام :

فإن نَـهزمْ فـهــزّامونَ قُدْماً * وإن نُـهزَمْ فغيـــر مـهزَّمينـا**

وما إن طبّـــنا جبنٌ ولـكن * منـايـــــانا ودولـة آخرينـا[28]**

وفيها يسطر الإمام سيرته وسيرة ابائه في الشجاعة وهزم الباطل بصيغة المبالغة" هزّامون" وهي مدعاة للفخر والإعتزار، والثقة بالسيرة والتأريخ الحافل لأهل بيته عليهم السلام.

المبحث الثالث

السيرة الاستشرافية

الاستشرافُ لغةً: أصله من الشرف، وهو العلو، كأنّه ينظرُ اليه من موضع مرتفع فيكون اكثر لإدراكه[29]، أما الاستشراف في الاصطلاح فهو: توقع ما سيحدث في المستقبل[30]، وهو مغاير للفراسة؛ حيث إن الفراسة هي علم من العلوم الطبيعية، تعرف بها أخلاق الناس الباطنية من النظر إلى أحوالهم الظاهرة، كالألوان، والاشكال، والاعضاء، وهي بالخلق الظاهر على الخلق الباطن[31]، وهو مغاير للكهانة؛ فالكاهن هو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدعّي معرفة الاسّرار، ومرجع ذلك تعامله مع الشياطين، قال رسول الله ﷺ من أتى عرَّافًا أو ساحرًا أو كاهنًا فسألَهُ فصدَّقَهُ بما يقولُ فقد كفرَ بما أنزلَ على محمَّدٍ))[32]. والاستشراف هو فنُ وعلمُ تشكيل المستقبل، وهو مهارة عملية تتضمن رسم نهج استباقي واعتماد [سيناريوهات] يمكن تحويلها إلى واقع ملموس يرتقي بالعمل الحكومي على أسس ومعايير مبتكرة[33]، ومما يجدر الإشارة اليه أن سيرة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في واقعة الطف كانت سيرة استشرافية، مستقبلية رويت على لسان جده رسول الله محمد ﷺ وأبيه علي بن ابي طالب عليه السلام وأخيه الحسن المجتبى عليه السلام ، فكلٍ منهم كان يذكر ويروي ما يصيب الإمام الحسين عليه السلام من خطْبٍ عظيم، وحدث مريع، في أرض العراق، وأشاروا في أكثر من موقف إلى رزية كربلاء حيث الفاجعة العظمى التي تنزل بساحة آل المصطفىﷺ فتقرح القلوب وتدمي الفؤاد، فقد قال رواة الحديث: **((لما أتت على الحسين من مولده سنة كاملة هبط على رسول الله ﷺ إثنا عشر ملكاً أحدهم على صورة الأسد،..... وهم يقولون: يا محمد سينزل بولدك الحسين عليه السلام ابن فاطمة ما نزل بهابيل من قابيل، وسيعطى مثل أجر هابيل.....))**[34]، وفي موقف آخر لرسول الله ﷺ يذكره أصحاب الحديث أنه **((لمّا أتى على الحسين من مولده سنتان، خرج النبي في سفر له فوقف في بعض الطريق واسترجع ودمعت عيناه فسُئل عن ذلك، فقال: هذا جبرئيل عليه السلام يخبرني عن أرض بشط الفرات يقال لها: كربلاء، يقتل عليها ولدي الحسين بن فاطمة عليه السلام فقيل له: من يقتله يا رسول الله؟! فقال: رجل اسمه يزيد لعنه الله، وكأنّي أنظر إلى مصرعه ومدفنه))**[35] نرى في هذين الروايتين اللتين وردتا عن رسول الله ﷺ في كتب الحديث سيرة استشرافية في ما سينزل بسبط رسول اللهﷺ من خطب فيما يستقبل من الزمان، فقد روى النبي سيرة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام كما رواها ابوه علي عليه السلام فقد روي عن عبد الله بن يحيى عن أبيه **((أنّه سار مع علي عليه السلام وكان صاحب مطهرته، فلما حاذى نينوى وهو منطلق الى صفين فنادى عليعليه السلام أصبر أبا عبدالله بشط الفرات، قلت: وماذا؟! قال: دخلت على النبي ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان، قلت يا نبي الله أغضبك أحد؟ ما شأن عيناك تفيضان؟ قال: بل قام من عندي جبرئيل قبل فحدثني: أن الحسين عليه السلام يقتل بشط الفرات، قال: فقال: هل لك إلى أن أشمك من تربته؟ قال: قلت: نعم فمد يده، فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضتا))**[36] فنرى هنا بأن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يشير إلى رزية كربلاء، وما يجري على ولده الحسين عليه السلام من أهوال، وخطوب في سيرة ماهي الاّ سيرة استشرافية لمّا يصيبه في مستقبل الأيام، كما نجد مثل هذه السيرة على لسان الإمام الحسن عليه السلام عندما دُسَّ له السُمّ، ولمّا حضرته الوفاه ((**حضر عنده أخوه الإمام الحسين عليه السلام فلما نظر اليه بكى، فقال عليه السلام ما يبكيك يا أباعبدالله ؟ فقال عليه السلام: ابكي لما يُصنع بك! ، فقال له الإمام الحسن عليه السلام: إنَّ الذي يؤتى إليَّ سمٌّ فاقتل به؛ ولكن لا يوم كيومك**.....))[37] كما إنّ الإمام الحسين عليه السلام هو نفسه كان يعلم بأنه مقتول بأرض كربلاء، ويعلم اليوم

الذي يُقتل فيه، والساعة التي يقتل فيها، أخبره بها جده رسول اللهﷺ وأبوه امير المؤمنين علي بن ابي طالب)عليه السلام(ونجد هذا في جوابه لأخيه عمر عندما سأله فيما سمعه من حديث أخيه الإمام الحسن عليه السلام عن أبيه في قتله في أرض يقال لها كربلاء، فقال له الإمام الحسين عليه السلام : ((**حدثني أبي أنَّ رسول اللهﷺ أخبره بقتله وقتلي، وإن تربتي تكون بقرب تربته، فتظنانك علمت مالم أعلمه** .....))[38] وهو من أجلى مصاديق الاستشراف في السيرة الطفّية.

الخاتمة

يستنتج الباحث مما سبق ذكره نتائج عدة خلص اليها سير البحث وأهمها:

أنّ السِيَّر الغيرية كثيرة في التراث العربي تحتل مكانة متميزة وتتمظهر في نصوص لها سمات أدبية وجمالية لا تفارق التوثيق والصدق في النقل والأمانة والموضوعية، كانت تفسيرًا للحياة الشخصية في جوها التاريخي، وهي ليست مجرد أخبار تأريخية، ولا هي مجرد تحليلات نفسية واجتماعية، بل هي كل ذلك مسبوكاً في قالب فني بجنبة أدبية وجمالية، كما خلص البحث بأن السيرة الذاتية قد تمظهرت بصيغة الأنا في نصوص الطّف، وكشفت عن شخصية المتكلّم وبواعثه الداخلية، بنصوص نثرية وأخرى شعرية لها سمة الصدق، والأمانة، من جهة وسمة الأدبية من جهة أخرى، كما كشف البحث وجود متغير جديد وهو السيرة الاستشرافية كقسيم ثالث للسيرتين الغيرية، والذاتية، والتي تمثلت باستشراف المستقبل السيّري لشخصيات الطّف، والتي إنمازت بجانبها التأريخي الذي لم يفارق شروط الوثاقة، كما أنه لم يفارق شروط الأدبية والجمالية، عن طريق تمظهرات الأنا في قراءة المستقبل السيري لتلك الشخصيات الواقعية .

الهوامش

---

[1]() ينظر: تاريخ وفن : ماهر حسن: 28

[2]() ينظر: التراجم والسير: محمد عبدالغني حسن: 10

[3]() ينظر: فن كتابة السيرة الذاتية، بحث : سناء صليحة : 15

[4]() ينظر: فن السيرة :عبد الرحمن علي : 18

[5]() ينظر: الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين: بن عساكر:89

[6]() ينظر: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث رؤيا نقديه: شعبان عبد الحكيم محمد: 20

[7]() السيرة الذاتية في الأدب العربي: تهاني عبد الفتاح شاكر:18

[8]() الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة: انيس المقدسي: 55

[9]() ديوان الفرزدق: 551 ، ينابيع المودة: سليمان القندوزي: 1 / ٤18 ، مقتل الحسين :الخوارزمي: 1 / 322، ذكرها الخوارزمي في مدح الأمام الحسين عليه السلام على لسان الفرزدق عند لقائه بالأمام الحسين عليه السلام في طريقه الى كربلاء.

[10]() ينظر: شرح جمل الزجاجي: علي بن مؤمن ابن عصفور:1 / 262

[11]() الملهوف : ابن طاووس : 98

[12]() مقتل الامام الحسين عليه السلام مثير الاحزان ومنير سبل الأشجان: ابن نما الحلي: 81 ، مقتل الحسين عليه السلام: (الخوارزمي): 268

[13]() ينظر: أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي تنظير وتطبيق على السور المكية: ٤6
مقتل الحسين عليه السلام ومصرع أهل بيته وأصحابه في كربلاء: (أبو مخنف): ٧6 ، ينابيع المودة: القندوزي : 398 .

[14]() مقتل الحسين عليه السلام : (عبد الرزاق المقرم): 255

[15]() مقتل الحسين عليه السلام ومصرع أهل بيته وأصحابه في كربلاء: 76

[16]() ينظر: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، رؤية نقدية: شعبان عبد الحكيم: 10

[17]() معجم مصطلحات النقد الأدبي المعاصر: سعيد علوش: 10 .

[18]() السيرة الذاتية: جورج ماي: 23

[19]() السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ: فيليب لوجون: 8

[20]() التراجم والسير: محمد عبد الغني حسن: 23

[21]() فن السيرة: إحسان عباس: 91

[22]() الملهوف :98

[23]() مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، بحث ضمن كتاب الحجاج

مفهومه ومجالاته: 2 / 195
[24]() مقتل الحسين: عبد الرزاق المقّرم: 236
[25]() مقتل الحسين: للخوارزمي: 1 / ٣٥٧ - 358
[26]() الإقناع المنهج الأمثل للتواصل نماذج من القرآن والحديث: بحث :.آمنة بلعلي: 156
[27]() الملهوف : 199
[28]() الملهوف: 157
[29]() لسان العرب: ابن منظور: ١٧١ / 9 مادة "شرف"
[30]() استشراف المستقبل في الأحاديث النبوية: عبد الرحمن عبد اللطيف قشوع: 12
[31]() علم الفراسة: جرجي زيدان:
[32]() ينظر: كتاب شرح فتح المجيد للغنيمان: عبد الله بن محمد الغنيمان:7/77، وينظر: لسان العرب: ابن منظور: ٤ /65
[33]() استشراف المستقبل وصناعته: د. احمد ذوقان الهنداوي وآخرون: 23
[34]() اينظر: مقتل الحسين عليه السلام:الخوارزمي: 1 / ٢٣٧ ،مقتل الحسين عليه السلام مثير الأحزان ومنير سبل الاشجان: ابن نما الحلي :64
[35]() مقتل الحسين عليه السلام : الخوارزمي: 1 / 238 ،مقتل الحسين عليه السلام مثير الاحزان ومنير سبل الاشجان: ابن نما الحلي: ٤٤ - 45
[36]() مسند احمد بن حنبل: 85 / 1 ، البداية والنهاية: ابن كثير: 8 / ٢١٧ ،مناقب آل ابي طالب: ابن شهر اشوب: 2 / 106 ، مقتل الحسين عليه السلام مثير الأحزان ومنير سبل الأشجان: ابن نما الحلي: ٤3
[37]() مناقب آل أبي طالب: ابن شهر اشوب: 3 /238 ، مثير الأحزان ومنير سبل الاشجان: ابن نما الحلي: 61
[38]() مقتل الحسين: عبد الرزاق المقرّم: ٦٤ .

المصادر

• القرآن الكريم

• الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين: أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن هبة الله ابن عساكر الشافي(620ه)، دار الفكر، دمشق-سوريا،1986.
• استشراف المستقبل في الأحاديث النبوية: عبد الرحمن عبد اللطيف قشوع: رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا.2005.
• استشراف المستقبل وصناعته: د. احمد ذوقان الهنداوي وآخرون، قنديل للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الاولى: 2017 م .
• أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي تنظير وتطبيق على السور المكية، مثنى كاظم صادق، منشورات اختلاف – الجزائر، الطبعة الأولى، 2015.
• الإقناع المنهج الأمثل للتواصل نماذج من القرآن والحديث: بحث :.آمنة بلعلي: بحث في مجلة التراث العربي ، المجلد 23، العدد 89 ، 31 مارس، 2003.
•البداية والنهاية: ابن كثيّر الدمشقي: مركز البحوث للدراسات العربية والاسلامية، هجر للطباعة والتوزيع، الطبعة الاولى،1997.
• البيان والتبيين: أبو بحر الجاحظ (ت 255 ه)، تح: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة مصر، الطبعة السابعة، 1998 .
•تاريخ وفن : ماهر حسن فهمي، دار القلم، الطبعة الثانية، 1983.
• التراجم والسير: محمد عبد الغني حسن هلال، دار المعارف، الطبعة الأولى،1955 .
• تظلّم الزهراء (ع) من إهراق دماء آل العباء ، السيد رضي بن نبي القزويني ،
• حجاجية السجع والجناس في الخطاب المقدماتي ، مقدمة ابن خلدون إنموذجًا: كمال الزماني، كلية اللغة العربية / مراكش المغرب، ع - 3 ، 2018 م: 69.

• ديوان الفرزدق ، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية' بيروت- لبنان، الطبعة الأولى،1987.
•السيرة الذاتية الميثاق والتأريخ الأدبي : فيليب جون ، ترجمة عمر علي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت- الحمراء، الطبعة الاولى، 1994م.السيرة الذاتية: جورج ماي: 23
• السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث رؤية نقدية: شعبان عبد الحكيم محمد، دار العلم والايمان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،2009.
• السيرة الذاتية في الأدب العربي، فدوى طوقان وجبرا، إبراهيم جبرا، واحسان عباس إنموذجا: تهاني عبد الفتاح شاكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 2002م.
• شرح جمل الزجاجي: علي بن مؤمن ابن عصفور الاشبيلي، تح: صاحب أبو جناح، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الاولى،1998.
• شرح فتح المجيد للغنيمان: عبد الله بن محمد الغنيمان، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net ، الكتاب مرقم آليا، ورقم الجزء هو رقم الدرس.
• الطراز: يحيى بن حمزة العلوي، تح: عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2002 م.
• علم الفراسة: جرجي زيدان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة - مصر، (ت.ط)، 2012.
•فن السيرة: إحسان عباس ، دار صادر، بيروت، الطبعة الاولى،1996.
• فن كتابة السيرة الذاتية، بحث: سناء صليحة، مجلة: ابداع، عنوان المقالة: نادين جوديمر فى القاهرة، العدد :8،سنة 1993.
• الفنون الأدبية واعلامها في النهضة العربية الحديثة: انيس المقدسي، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى،1978.
• لسان العرب: ابن منظور، دار المعارف ، كورنيش النيل ، القاهرة (ج، م. ع) ، الطبعة الثالثة، 2009.
• المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، تح: أحمد حوفي وبدوي، دار نهضة مصر، (د.ت)،(د.ط).
• مثير الاحزان ومنير سبل الأشجان: ابن نما الحلي، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف، الطبعة الثالثة، 1950 م.
• مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 2008.
• معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، لبنان – بيروت، الطبعة الأولى، 1985م.
• مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، بحث ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، بحث: محمد سالم ولد محمد الأمين، مجلة: عالم الفكر، العدد:3، 1 يناير 2000.
•مقتل الحسين الخوارزمي: تحقيق محمود السماوي، دار أنوار الهدى للنشر، النجف الاشرف، الطبعة الاولى،(د.ت).
• مقتل الحسين : عبد الرزاق الموسوي المقرم، منشورات مؤسسة النور للمطبوعات ، لبنان- بيروت، الطبعة الأولى،2002م.
• الملهوف على قتلى الطفوف: علي بن موسى بن جعفر بن طاووس(664ه)، تحقيق فارس تبريزيان ، دار الأسوة للطباعة والنشر، طهران –قم ، الطبعة الثالثة، 1422ه.
• ينابيع المودة لذوي القربى: القندوزي الحنفي، علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ه.